"أتيت لكي تكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر" (يوحنا 10/10)

استهل كلمتي بتوجيه تحية الإجلال والتكريم إلى أصحاب الغبطة والنيافة والسيادة والآباء العامين والرئيسات العامات وكل الضيوف والمساعدين والمستشارين الذين لبوا دعوة هذا المؤتمر، بالرغم من أعمالهم المزدحمة ومسؤولياتهم المتراكمة.

أود كذلك أن احيي شعوب ورؤساء بلدان الشرق الأوسط التي نأتي منها ونعيش في كنفها ونمارس خدمتنا في ربوعها، ونشارك في مصيرها.

وليسمح لي أن أخص بالذكر هذا البلد، الذي هو كما قال قداسة البابا يوحنا بولس الثاني اكثر من بلد، انه رسالة؛ لبنان الذي فتح ذراعيه وقلبه لاحتضان هذا المؤتمر موفِّراً أجواء الأمن وحرية الكلمة. للبنان الحبيب ولرئيس لبنان فخامة الرئيس اميل لحود تحيتنا وشكرنا ودعاؤنا. وما دمنا نجتمع باسم يسوع فإننا نأمل أن يكون يسوع معنا وبيننا.

وبعد أيها الاخوة الكرام،

يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، نقترب من عيد فريد، يفوق كل الأعياد، لأنه يشمل كل الأعياد، عيد لا يتكرر مرة كل سنة، بل يأتي مرة واحدة كل ألف سنة، وقد احتفلت به الكنيسة مرة واحدة في التاريخ، منذ ألف سنة، وها هي تحتفل به ثانية بعد ألف سنة.

هذا العيد هو اليوبيل الكبير، عيد مرور ألفَي سنة على ميلاد ربنا يسوع المسيح بالجسد، هذا الحدث السر الذي به بلغت البشرية ذروة دعوتها، بعد أن صار الله إنساناً ليُشرك الإنسانَ في ألوهيته كما يقول البابا يوحنا بولس الثاني، بعد القديس اثناسيوس الإسكندري الذي قال: إن الله تجسد لكي يؤله الإنسان!

هذا الحدث العظيم كان يستحق هذا المؤتمر الكبير الأول للبطاركة والأساقفة الكاثوليك في الشرق الأوسط الذي يجمع سبعة بطاركة ومائة وأربعة أساقفة، وعشرة رؤساء رهبان عامين، وسبع

عشرة رئيسة عامة، وخمسة كرادلة، وثمانية رؤساء مجالس أسقفية، وسفير بابوي، عدا المستمعين العلمانيين، والمستشارين والمساعدين والمترجمين والإعلاميين.

كان يجب أن نكون هنا اليوم، وبهذا المستوى، وبهذا العدد. وكان لا بد لنا من هذه المحطة الروحية وهذه الوقفة الواعية أمام الزمن، وأمام التاريخ، لنشهد إننا نعي الحدث، وإننا نقف أمام مسؤولياتنا.

ولعل أول ما يتوجب علينا فعله هو أن نستوعب واقع حاضرنا، عينٌ على الماضي وعين على المستقبل.

فوراءنا ألفا سنة من عمر الكنيسة، حافلة من جهة بأمجاد نفخر بها ونشكر الله عليها ولكنها مثقلة من جهة أخرى بأخطاء وأغلاط نأسف لها ونقرع صدورنا ندماً عليها.

إن التاريخ هو علم العلوم ومرآة المستقبل. منه نأخذ العبر، ومنه نستمد النور. فان كان الألف الأول هو عهد الانتشار السريع للمسيحية وعهد الآباء والرهبانيات، فهو ايضًا عهد الانقسامات المؤسفة التي لا نزال نعاني من نتائجها السيئة حتى يومنا هذا.

وان كان الألف الثاني هو عهد الرسالات الكبرى ووصول المسيحية الى الأميركيتين وأفريقيا السوداء وأوستراليا، فانه أيضًا عهد الانشقاق الكبير بين كنائس المسيح، وانحسار المسيحية من مساحات جغرافية واسعة.

والآن ها هو الألف الثالث يطل علينا والأسئلة الملحة تحاصرنا: ماذا سيحل بمسيحيتنا في الألف الثالث؟ هل ستنعم المسيحية بالسلام وتلملم جراحاتها وتستعيد وحدتها وتنطلق في نشر ملكوت الله الى آفاق جديدة! أم تتعرض لأزمات وانقسامات ونكسات أخرى؟

من الذي سيعبر من الألف الثاني الى الألف الثالث: هل كنيسة فاعلة في العالم أم عالم بلا كنيسة؟

بل اكثر من ذلك: أي مكان سيكون للمسيح في الألف الثالث؟

وماذا عن شرقنا وعن وجودنا وعن هجرتنا، وعن علاقتنا بمحيطنا، وعن استعداداتنا لمواجهة تحديات المكان والزمان!

إننا سنرى أن الجواب ليس بالأمر السهل، وإننا نصطدم بعقبات كبرى. وقد يذهب البعض الى التأكيد بأن الميزان يميل الى التشاؤم.

ولا أريد أن استبق الحلول ولا أن أقع في الوهم.

ولكني اعتقد أن هناك عاملَين فاعلَين في التاريخ بدأ يأخذان دورهما البارز في مسيرة كنيستنا الشرقية واليهما يلجأ عادة المسيحيون في الملمّات الصعبة. هذان العاملان هما الروح القدس والعذراء.

الروح هو الذي يهبُّ ويخرجنا من العلية المغلقة ويفتح لنا الأبواب الموصدة، ويغير وجه الأرض.

والعذراء هي التي ستتدخل وتأتي بحلول تفوق توقعاتنا، كما فعلت في قانا الجليل وحولت بقدرة يسوع الماء الى خمر جيدة.

الروح القدس والعذراء هما بوابة الأمل لكنيستنا الشرقية في الألف الثالث! بل أجرؤ وأقول: إن الألف الثالث سيكون عصرهما ! وها هما يتحالفان ويتخذان مبادرات لصنع كنيسة جديدة، وإنسانية جديدة، وحضارة جديدة، وكنيسة مشرقية جديدة!

إلا أن الأمل الذي يفتحه لنا الروح القدس والعذراء مريم لا يعفينا من العمل الجدي ومن تحمُّل مسؤولياتنا الكبرى. فعلينا السعي على كل المستويات:

من التعاون بين كنائسنا الكاثوليكية ووحدتها وتضامنها،
الى الالتزام المسكوني مع الكنائس والجماعات المسيحية الأخرى،
الى الانفتاح وروح الحوار وقبول الآخرين كما هم لا كما نُريد،
الى العودة الى الينابيع والعبِّ من مناهل التغذية الروحية،
الى التجديد في الرؤية اللاهوتية والتحديث في الوسائل الراعوية،
الى الالتزام بالشأن العام ونظافة اليد وطهارة الضمير، والنضال من أجل حقوق الإنسان والعمل للسلام، فنرفع الصوت عالياً:

من أجل تحرير جنوب لبنان،
ومن أجل جعل القدس مدينة مفتوحة لكل الشعوب والأديان،

ومن أجل فك الحصار الغاشم عن شعب العراق،
ومن أجل دعم الحرية والديموقراطية في السودان.

ولكني أتمنى أن لا يفوتنا الموضوع الجوهري الذي حددناه لهذا الاجتماع وهو: إني أتيتُ لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر (يوحنا 10/10).

وإن كنا نعلِّم ونبشر بالذي أتى، فإني أرى أن لا ننسى أولئك الذين أتى يسوع لأجلهم لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر، أعني بهم البشر، الناس، الإنسان.

يقول القديس ايريناوس منذ القرن الثاني للميلاد: إن مجد الله هو الإنسان الحي.

وإني أرى أن من واجبنا أن نركِّز على الإنسان وعلى الإنسان الحي.

إني أرى أن كنيستنا في الألف الثالث يجب أن تكون خادمة الإنسان؛ هذا الإنسان الذي ليس سلعة تُباع وتُشترى وتُستغلّ. بل ابن الله وصديق الله وصورة الله وشريك الطبيعة الإلهية.

كم هو عظيم الإنسان حتى إن الله يركع أمامه ويغسل قدمَيه ويطلب محبته ويموت من أجله.

لذلك أرى أن كنيستنا في الألف الثالث هي كنيسة ترى الله في الإنسان، وتخدم الله في أيّ إنسان، وتحب الله في كلِّ إنسان، ولا سيما الإنسان المعوَز، المعوَّق، المجروح في كرامته، المسلوب في حقوقه، المطعون في حريته.

ليتَ كنيستنا تفطن دائماً أن طريقنا الى الله يمرُّ بالإنسان.

لنُحب إذاً بلا حدود. وإذا لم نجد المحبة، فلا نيأس! فكما يقول يوحنا الصليب: حيث لا يوجد الحب ، احمل الحب وستجد الحب.

لنحب أكثر فأكثر، وكل مرةٍ نعيش المحبة ونحقق المحبة ونساهم في انتصار المحبة نُعطي الفرصة لله كي يتجلَّى فينا.

اغناطيوس موسى الأول داود

بطريرك السريان الانطاكي